

## الفصل الرابع

### القديم والجديد في التوجيه

القديم والجديد في توجيه الدين :

هل هناك قديم وجديد في التوجيه ؟

هل توجيه الدين قديم .. وتوجيه العلم جديد ؟

إذا تحدثنا عن الدين هنا ، فهو رسالة الله الى البشرية منذ نوح الى محمد عليهما الصلاة والسلام .. هو الاسلام .. لأن رسالة كل رسول كانت الاسلام .. وكل كتاب لله هو .. كتاب الاسلام :

« أن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » (١) ..

تسمية هذا الكتاب مرة بأنه : التوراة .. ومرة بأنه : الانجيل .. وثالثة بأنه : القرآن .. لا تغير من اسم الدين .. ولا من جوهره ..

وقد كان القرآن آخر صورة لرسالة الله .. فهو اقرب لدى البشرية في التعبير عن دين الله .

والاسلام ، كدين الله .. يصور اذن من قرآنه ويقيم من التعاليم التي سجلت به ، ولا يدخل في اعتبار هذا التصوير ، ولا في التقييم .. قولة انسان عنه ، ولا فهمه لنصوصه .. ولا استنتاجه لأحكامه .. كما لا يدخل فيه : مذهب طائفة ، ولا اتجاه فرقة من فرق المسلمين .

---

(١) آل عمران : ١٩

والقرآن ، كآخر كتاب لدين الله ، ان وجد فيها جاء فيه كثير أو قليل مما جاء في التوراة والانجيل قبله .. فليس لأن الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام تعلم على نفر من أهل الكتاب ... أو نقل بحكم تأثير المخالطة في الجوار بعض ما لهم ، وذكره فيما سماه : القرآن ... ونسبه الى الله .. كما يقول بعض المستشرقين !!

... ولكن لأن ما جاء فيه : هو رسالة الله التي هي الاسلام ، والتي هي لم تتغير في أصولها ولا في اسمها .. فهو مصدق لما في التوراة ، والانجيل قبله .

فان وجد هناك اختلاف ، بعد ذلك بينه وبين ما أنزل على موسى وعيسى ، عليهما السلام من بعده .. فيرجع هذا الاختلاف : الى صناعة الإنسان فيما أنزل عليهما ، استمساكا بزعامة ، أو احتفاظا بجاه في المجتمع .

والاسلام ، كدين بهذا المعنى .. ليس فيه قديم ، ولا جديد . نعم قد كانت له رسل مختلفة ، ودعوا برسالاته في أوقات متتالية ، وبين أقوام من البشر عديدة ، ولكن ذلك لم يخرج عن وحدته في أصوله العظامه .. التي جاءت وفقا لخصائص الطبيعة الإنسانية ، من .. حيث هي طبيعة انسانية .

ان الذي أوحى بالاسلام .. هو الله .. صاحب الكمال المطلق .  
ومعنى أن الله صاحب الكمال المطلق أن كماله لا يتطور ، ولا ينتقل من مستوى .. الى مستوى . اذ لو كان على هذا النحو لكان كمالا نسبيا .  
لكننا نلاحظ بالأمس .. بالنسبة لما له في اليوم .. وما له في اليوم ناقصا عما له في الغد .. وهكذا ..

معنى الكمال المطلق : أن الله له الكمال لذاته .. وليس مكتسبا ولا متوحا من موجود آخر . فكمال على وضع لا يتغير .. ملازم للذات في وجودها .

وصاحب الكمال المطلق : علمه علم يقيني ، ليس بالأمس وهما .. واليوم ظلنا .. وغداً علماً .. تصقله التجربة والاختبار !!

... علمه فوق الزمن ، وفوق محدودية العقل الانساني ، وفوق التجربة والاختبار .

... علمه من كماله . وهدايته للناس في رسالته لذلك .. هداية لاتقبل الخطأ : سواء في تعاليمها ، أو في مساومتها للطبيعة البشرية التي جاءت لها .

وقصة القديم والجديد في شيء لا تتم الا اذا كان هذا الشيء خاضعاً  
لسنة النمو والتدرج والتطور ... الا اذا كان يعيش في الزمن وليس فوقه ..  
وكان في وجوده يقبل التأثر أو التفاعل .. وليس بمنأى عنهما .

ومن أجل أن طبيعة الانسان تختلف في ذلك عن ذات الله .. كان علم  
الانسان قابلاً للتطور .. بينما علم الله لا يتغير . وأذن ليس في دين الله :  
جديد ، وقديم .. هو هو .. لا يتغير . وكتابه هو هو ، لا يتغير . ومساوقته  
للطبيعة البشرية هي هي ، لا تتغير . وما جاء فيه من توجيه لتلك الطبيعة  
هو هو ، لا يتغير .. وما اقترن بالهداية بدين الله من صلاح واصلاح ، ونجاح  
وسعادة للانسان .. هو هو ، لا يتغير .. وما اقترن بالانحراف عن تلك  
الهداية من تردد وقلق ونزاع .. هو هو ، لا يتغير .

ان الذى يتغير هو الانسان ... هو الفرد أو المجتمع .. يتغير انسان  
الدين في فهمه للدين والعمل به ... ويتغير الانسان في موقفه من الدين ،  
فيؤمن به أو ينكره ... ويتغير الانسان في تقييم ذاته ، فيعلو الى مكان الله ،  
أو ينزل فيه الى مكان الحيوان ... ويتغير الانسان في فلسفته ، فيبرر هواه  
وما يشتهي ، ويبرر جموحه وانحرافه ، وظلمه وعدوانه .. أو يعود بنفسه  
الى العزلة ويدعو اليها ، هرباً من تحدى مشاكل الحياة ، أو ترفعا بنفسه  
عن أن يزوج بها في زحمتها .

... دين الله كون مع الانسان ، تاريخ البشرية ... هو يعيش مع  
الانسان ... ولن ينتهى من حياته .  
وتاريخ البشرية :

يمثل الفترات التى يقترب فيها الانسان من الدين ،  
... والأخرى التى يبتعد فيها عنه .

... وسيظل يؤدي دوره على هذا النحو .. لأن هذا التاريخ يدور في  
دائرة ، ولا يتحرك في خط .. الى غير نهاية .

لو أن الانسانية تختلف في طبيعتها على مر السنين ، لاختلف تاريخها  
في حركتها . ولكن طبيعتها هي الطبيعة الحيوانية العاقلة .. طبيعتها الطبيعية  
المصارعة ، التى تحتم الصراع من ذاتها ، بسبب تكوينها ، وبين الطرفين  
الذين تتكون منهما ، وهما : الغريزة .. والعقل .

... ولو أن الطبيعة الانسانية تتطور الى غرائز خالصة ، أو الى عقل  
خالص لتبع تاريخها مراحل هذا التطور .. ولبدأ فيه التغير بحيث لا يكون  
تشابه في حياة الانسان في مرور الزمن عليها . ولكن « التشابه » هو محور  
تاريخ الانسان . فهو أذن يدور وتتكرر مظاهره .. وأذن : فما كانت صلاحته

للتوجيه الانساني لذاته . . باق في صلاحيته مع الطبيعة البشرية لذاتها . ويوم  
تعود اليه تهتدى به . . ويوم تتعد عنه تشقى بالبعد عنه .

.. لا جديد ، ولا قديم في توجيه الدين اذن . الجديد والقديم في عرض  
الانسان لمبادئ الدين . كالفلسفة : ليس فيها قديم ، ولا جديد ، الا في تصوير  
مشاكلها ، وأسلوب عرضها . فطالما كانت الفلسفة هي محاولة شرح مشاكل  
الوجود والحياة الانسانية . . فهي من حيث هذه المشاكل لا تختلف . والذي  
يحدث ظاهرة الاختلاف هو الفيلسوف ، أو المدرسة الفلسفية الخاصة التي  
تتبنى اتجاهها خاصا في الحياة ، أو تقع تحت تأثير هذا الاتجاه الخاص ، فتصور  
المشكل أو تعرضه بصورة . تختلف عن عرض فيلسوف آخر أو مدرسة  
أخرى .

ان الدين كان من القضايا التي تعرضت لها الفلسفة بالشرح . . منذ ان  
عرف للانسان تفكير فلسفي . ولم يزل حتى الآن من مشاكلها . . وسيظل  
مشكلة تعالجها الفلسفة اليوم وغداً .

.. تعرض الفكر الاغريقي للدين ، وتأثر به في عرضه . ولا يختلف  
أرسطو عن أفلاطون في ذلك . . الا في أسلوب العرض نفسه .

.. وتعرض فكر القرون الوسطى له وظاهر في تأييده ، وأعلن  
حجيته . وامعانا في الإبقاء على هذه الحجية ، منع أن يخوض في الفلسفة غير  
رجال الدين . وأن يعرض الدين غير رجال الفلسفة الدينية .

.. وتعرض الفكر الوضعي . . « اوجست كونت » ، في أوائل القرن  
التاسع عشر . . للدين وكان في عرضه له . . انكار الأساس ، وهو وجود  
الله . . ودعوة الى الايمان بالوجود الوضعي وحده ، واستمر للفكر الوضعي  
أثره في الفكر الماركسي ، وتكون كنتيجة له . . توجيه عدائي للدين ، أو  
الحادى يكفر بدين معين ، ويؤمن بدين آخر . . ينكر دين الكنيسة ، ويكفر  
به . . ويؤمن بدين الانسانية والجمهورية . . وينكر رجال الدين ، ويؤمن  
بعلماء الطبيعة ، وعلماء الاجتماع . . ينكر الروحية ، ويشهد ايمانه  
بالاقتصاد .

فتضية الدين كانت مشكلة من مشاكل الفلسفة . . وظلت كذلك ووقف  
منها الفكر الفلسفي في تصوره للدين ، وفي عرضه اياه . . مواقف عديدة  
ومتقابلة . . فما الذي حمل الفكر الوضعي على معارضة الدين وانكار  
اعتباره . . بينما الفكر الاغريقي ، وفكر القرون الوسطى . . تأثر كل منهما  
باعتماره ؟

هل بدائية البشرية فيها قبل الفكر الوضعى ، ويقظتها في عهده ...  
كلاهما : أوحى بما أوحى به .. من تصور .. ورأى في الدين ؟

هل « العلم » كان السبب في ذلك ؟

... هل التخلف في العلم حمل على موقف منه ... والتقدم فيه حمل  
على موقف آخر ضده ؟ ..

إذا كان تقدم العلم على عهد التفكير الوضعى حمل على انكار دين  
الكنيسة .. فكيف يوحى بوضع دين آخر .. هو دين الانسانية ؟

ليست طبيعة الدين كدين ، وهى الايمان .. تتنافى مع غاية العلم ..  
وهى : الخضوع للتجربة وحدها ؟

... كيف يعرف العلم .. الايمان .. وانفراق في دين الانسانية ؟

... كيف يدخل « الاحساس » في الانسان .. الى مجال التجربة ؟

ليست البواعث الشخصية هى التى حملت صاحب الفكر الوضعى ،  
والتبئين له من بعده ، على انكار دين الكنيسة ، حتى تهتز سلطتها ووجودها  
.. ويستقل العلماء وحدهم بالمجتمع وقيادته ؟

... انها نظرة الانسان التى تتسع مع عوامل كثيرة ، ومن بينها  
انفعالات : الكره والبغض ، والمحبة والتواد .. انها نظرة الانسان المحدود  
الذى يخضع للظروف التى عاش فيها ، ويستحيل عليه أن يرتفع فوقها .

... ان الفكر الوضعى لقى رواجاً في القرن التاسع عشر ، وما زالت  
الفلسفة الماركسية تروج له في القرن العشرين . لأنه صادف ظروفًا كانت  
تجتم التغيير في المجتمع ... ظروف الخلاص من وضع قائم ، الى وضع  
جديد ، ثم صادفت الدعوة اليه ملابسات تميل ببعض الطبقات في المجتمع الى  
عدم التصديق بالعدل الالهى ، الذى تحكى عنه الكنيسة .. بينما هى تساند  
المغتصبين لحقوق الانسان ، والمعتدين على سيادة العدل .. احتفاظا  
بالجاه ، وابقاء على ممارسة السلطة في الحكم .

... ان الفكر الوضعى يبشر بعلم الاجتماع ، وبعلماء الاجتماع في  
تنظيم حياة المجتمع ..

اية مدرسة من مدارس علم الاجتماع .. هى التى ستقوم بهذه المهمة؟ .

طبعاً : انه الاتجاه الاستثنائى الطبيعى العلمى الفردى .. وهو اتحاه  
« كونت » .. « اسبنسر » .. وهو الاتجاه الذى يقوم على : أن الظواهر

الجماعية نتيجة للتأثيرات المتبادلة بين الأفراد ، كوحيدات مستقلة ...  
وليس « الاحساس الجماعى » اذن الا احدى الظواهر لهذا التأثير المتبادل !.

وهذا الاتجاه يرى أن الأحداث أو الظواهر النفسية فى الإنسان ..  
هى تابعة فى وجودها لطبيعته المادية .. وأن التغير المادى لديه صحبه  
تغير نفسى .. ولا يرى العكس : كالاتجاه السيكولوجى .. فى أن التغير  
النفسى .. يتبعه التغير المادى .

ومن هنا تأسيسا على هذا الاتجاه : وجود الجانب العقلى فى الإنسان  
.. متأخر عن الجانب المادى فيه .. ومتأثر به ، فى نشاطه وتطوره ...  
والمستويات الاقتصادية فى المعيشة هى التى تحدد مستوى تفكير الإنسان  
ونوعه .. كما أعلنت المادية الماركسية التاريخية الديالكتية .

ان هذا الاتجاه المادى فى الخلق والابجاد ، والتأثير ، لا يترك اذن  
الفرصة لأمر عقلى أو نفسى يحدث أثرا نفسيا آخر ، أو ماديا . فكيف بعدد  
ذلك يطلب « كونت » صاحب هذا الاتجاه من الايمان بدين الانسانية .. أن  
يحرك « الاحساس الجماعى » فى الأفراد .. أو ينشئه ، والايمان أمر نفسى  
خالص ؟

ان العلم فى نظر كونت ، وهو علم الاجتماع بصفة خاصة .. كفىل  
بتنظيم المجتمع فى علاقات أفراده بعضهم ببعض ، بحيث يكون أشبه بالكائن  
الحيوانى الذى أعد من الطبيعة بأجهزته المختلفة للحركة المعاونة !

... والدين ، وهو دين الانسانية فى نظره .. كفىل بتحريك الوجدان ،  
وبحدوث التفاعل النفسى بين الأفراد ، فيما سماه : بالاحساس الجماعى .  
لماذا يشذ الوجدان ، وهو كالعقل فى الإنسان .. فى تحركه عن أن يكون  
ظاهرة لأمر مادى ، يسبقه فى الوجود ؟

... وكذلك الشأن مع السلوك الأخلاقى وخضوعه للمستويات المادية  
للمعيشة التى يعيشها الإنسان .. هل سلوك المترفين فى المعيشة هو السلوك  
الانسانى المثالى .. وسلوك الحفاة هو السلوك الردىء ؟ .

... هل القرصنة وقطع الطريق ، ومزاولة السرقة .. ظواهر نفسية  
سلوكية ، يحدثها حتما .. مستوى الضيق والحاجة فى معيشة الانسان ؟

... هل من المحتم اذن أن يكون سلوك الطبقة الكادحة ، وهى التى  
عاشت تحت ضغط الحاجة .. فى الحكم اذا ما باشرته سلوك الطفغاة  
المستبدين ؟ فالحرمان أو الضيق قد أكسبهم قسوة .. وأعد نفوسهم للحقد ؟

ان هذه الأسئلة ومثيلاتها تثير : ما اذا كانت الفلسفة الوضعية نفسها كانت « رد فعل » لأوضاع في المجتمع الأوربي . . قبل أن تكون فكرا مجرد عن احساس الضيق وانفعال البغض . . . وتجرد عن الوقوع تحت تأثير ارادة التغيير ؟

وما في المجتمع البدائي يخضع تفكير الانسان ، ووجدانه وسلوكه ، لفترة ما أو في بعض الفترات ، كما يخضع المجتمع في علاقته . . الى الجانب المادى في مستوى المعيشة ووسائل تحصيلها . ولكن المجتمع الحضارى ، وقد تكونت لديه مثل وقيم يختلف من أجلها ، ويتنازل في سبيلها . . . اليس من اليسر اغماط شأن هذه المثل والقيم ، واثكار تأثيرها في الظواهر العقلية والنفسية لدى الفرد وفي المجتمع بجانب العامل المادى ؟

. . . ربما الطفل في مرحلة طفولته يتأثر في سلوكه وفي احساسه ، بديناه المادية وحدها . . . أو بالعوامل المادية التى تغريه ! :

فتدى أمه . . . يثير تودده اليها ،

وعنايتها بأمر نظافته . . يقربها الى نفسه أكثر من والده ،

واللعبه ذات اللون الزاهى تحمله على الابتسامه والحركة بيديه ورجليه ، املا في الحصول عليها ،

والحيلولة بينه وبين الاقتراب من نار الموقد تجعله غاضبا ومخاضا . . وهكذا . . .

ولكن حتى في مرحلة المراهقة ، لماذا يميل الانسان الى التضحية ويسعى الى البطولة ؟ . أى شىء مادى يدفعه الى ذلك ؟

اليس لأنه يريد أن يكون متميزا في فرديته ؟

اليس لأنه يبغي تاريخا ، ويعشق مثلا عليا ، يسعى الى البطولة والتضحية في سبيل تحقيقها ؟

اليس لأنه أدرك المثل العليا في مجتمع يرددها ، ويود أن يكون واحدا من اصحاب المثل . . . بتحقيق بعض نماذج البطولة والتضحية ؟

وبموقف الفكر الوضعى من الدين لم يغير موضوعه ، ولم يغير من قيمته الذاتية في التوجيه . . . ولم يصب الا صنعة الانسان حوله . . . ومحاولته استخدامه كوسيلة لدنيا ، وليس كغاية تتحقق معها غاية الانسان من وجوده على هذه الأرض .

وهنا بقى توجيه الدين الذاتى .. ليس فيه قديم وجديد .. وبقيت  
صلاحيته الدائمة ... ليست لجيل دون جيل .

.. العلم هو الذى يتطور ، وليس الدين :

أما العلم — وهو أثر للانسان لاشك ... فيخضع لسنة الحياة  
الانسانية ... يتخلف بتخلف المجتمع الانسانى فيه ... ويتقدم بتقدم المجتمع  
والانسان فيه .

... العلم هو المعرفة التى يحصلها الانسان عن الوجود ... ومن  
حركته فيه ... وكشفه عن جوانبه .. وقد ظل الانسان فترة يتعلم ، ويتلقن  
من الكهان ورجال الدين . ولا نقصد بالدين هنا الاسلام الذى هو رسالة الله  
منذ أرسل رسوله به الى الناس .. وانما الدين هنا هو الاتجاهات الاعتقادية  
التي تكونت بفعل عوامل البيئة وأحداثها ... والتي لعبت فيها **الصدفة** ...  
دورا رئيسيا فى نشأتها .. وقوة الاعتقاد فيها .

... هى تلك الاتجاهات التى يخضعها علماء الاجتماع الى التطور  
وقانونه .. ويجرون عليها مراحل التغيير من : البدائية .. الى ذات المستوى  
الرفيع . ويرى أكثر هؤلاء العلماء : أن الدين السماوى يصور المرحلة الأخيرة  
من مراحل تطور الدين .. كدين !

... وليس هناك من صلة بين هذه العقائد ، وبين الدين السماوى ..  
الا المشاركة فى معنى الايمان والاعتقاد .

... هى تلك العقائد التى تصور الوثنية .. وتحكى عن تعدد الآلهة ..  
وتسوى بين الذكر والأنثى فى مجال الألوهية ، كما تسوى بين الآلهة والانسان  
فى أنه : يجوز على الآلهة ما يجوز على الانسان : من أكل وشرب .. وزواج  
ونسئل .. وموت وحياة .. وتردد بين الفرح والأمل ... والانفعالات  
المختلفة ... الخ .

... كان كهان هذه العقائد المحلية يلتقون الانسان ، باسم الآلهة ..  
ما لديهم من صورة عن الحياة والوجود ، وعن مستقبله ومصيره . وما يلتقون  
به اليه من تصورات ... **تسلم من الوهم ، والظن والخيال** .

... وعاش الانسان جامدا لا يتحرك الا بإشارة الكاهن أو رجل الدين،  
أو يسترشد عن طريقته بمواقع النجوم ، ومنازل القمر والشمس .. وقد كانت  
الكواكب تعبد أيضا ، كما كان يعبد كثير من الكائنات المحسنة على الأرض ..  
حتى الحيوان والانسان .. كان يخضع له الانسان خضوع العابد المتوسل !

... ودافع العبادة كان يومئذ : يتمثل في الرغبة ، والخشية .. الرغبة في المنفعة .. والخشية من الضرر والأذى . وصورة العبادة كانت : التقرب بالقرابين المختلفة ، مما يشتهي الإنسان عادة ، وينعم بتساوله .. حسب عرف البيئة وتقاليدها .

واستمر الإنسان في الطاعة الى الكاهن ، وفي الارتباط بالكواكب في حياته الى أن فتنش بنفسه عن طريق عقله في : « ماهية » الوجود والحياة .. وفي كنه الطبيعة وما وراء الطبيعة .. فكانت الفلسفة في جانب الدين .. وكان الفيلسوف في جانب الكاهن .

ثم التفت الفلسفة مع دين الله ، بعد دين الكهنة .. وبانه السموات والأرض في كتابه .. بعد الكواكب والجبال والأنهار والنار والصحراء والحيوان والإنسان .. كل في محيطه الخاص به .. واتصلت به في وفاق .. أو في خصومة . وفي ايها .. أو كفر به .

ومن عقائد الكهان ،

ومن فلسفة الإنسان ،

ومن دين الله ،

... تكونت معرفة الإنسان في تاريخها وتطورت في : كمها وكيفها ... نمت وزادت في الكم ، وصفت وتحسنت في النوع . وزادت في الكم جعلها فروعا مختلفة . وصفائها في النوع قربها الى اليقين .

... وهي في أصلها : ان رجعت في مصادرها الى : دين ، وفلسفة . فهى بعد تطورها ، انبثق عن الفلسفة ما أخذ اسم **العلم** وتشعب الى علوم كثيرة . وقوام استحقاقه لهذا الاسم .. خضوع موضوعه للتجربة والاختبار ، أو تمحض قضاياها للعقل وحده . ودخل في ما صدق العلم بهذا المعنى : العلوم الطبيعية التجريبية .. والعلوم الرياضية .

... ولأول مرة في تاريخ المعرفة الانسانية يدخل « **كونت** » علم الاجتماع ضمن العلوم الطبيعية ، ويتحدث عن **الاشتراكية العلمية** التي قصد منها تنظيم حياة المجتمع على أساس من نظرية علم الاجتماع وقوانينه ، التي تعتبر نهاية العلم وثمرته .

... وكلما كانت وسائل التجربة ، ومعايير الاختبار دقيقة ... كلما كانت نتائج التجربة والاختبار أدخل في مفهوم العلم .. وكلما كانت خطوة في طريق التقدم العلمى .

وبهذا ترد في المعرفة الانسانية بداية : هي الوهم أو التخيل في تصور الوجود .. وتدرج من هذد البداية ، باستخدام العقل ثم معه التجسرية ، متطلعا الى مستوى اليقين . وبهذا تختلف معرفة اليوم .. عن معرفة الأمس ، ويمقتضى منطق التطور .. ستختلف معرفة الغد عن معرفة اليوم .

ان الذى جعل معرفة اليوم عندها سماها الانسان علما تختلف عن معرفة الأمس التى كانت تعرف بدين الكهنة ، أو بفلسفة الفلاسفة .. هو الذى يحتم اختلاف المعرفة في الغد .. عن المعرفة في اليوم .

فالانسان اذا كان متطورا منتقلا من مرحلة الى أخرى ، ولا يرجع في انتقاله الى مرحلة سابقة ، وإنما يضيف مرحلة جديدة الى ما خلف في تاريخه .. فلا بد أن لا تتف معرفته على هذا النحو .. عند مرحلة ، ولا ترجع الى مرحلة مضت .. بل تنتقل كذلك الى مرحلة جديدة .

والمرحلة الجديدة في المعرفة .. هي مرحلة القرب من اليقين والتنوع . لان اليقين هو هدف التصفية العلمية . والتنوع نتيجة لازمة لكثرة الاختبارات وتعدد التجارب . وتتم هذه التصفية في مجالات أخرى للعلم .. بعد استخدام التجربة والاختبار فيها ، كجال الفضاء ، بعد أن كانت معرفته قاصرة على النظر والملاحظة .. أو باعادة الاختبار في مجال اتضح أن النتائج العلمية فيه تحتاج الى مراجعة من جديد . اذ بعد مرور زمن على الاختبارات السابقة ، كشف عن نقص فيها يحول دون اعتبار تلك النتائج قانونا علميا صالحا للتطبيق العام . وذلك كجال الطب على الخصوص .. وكجال الكيمياء الصناعية .

والسؤال الآن : هل يصل الانسان في علمه .. الى يقين .. والى قوانين علمية تطلب الاعتبار العام والصلاحية الأزلية للتطبيق ؟ .. على معنى : أن تطبيقها لا يترتب عليه ضرر أو خطأ ما ؟ .

ان الانسان متطور ، ومتغير في الوقت نفسه . وتغيره يحد من تطوره ، ويحول دون أن يصل فيه الى نهاية معينة .. تغير الانسان ، سيحول دون كماله .. فلن يصل علمه الى يقين تام .. ولا الى احاطة تامة بالوجود ، وبنفسه ، وحياته . اذ اليقين في العلم والاحاطة فيه .. أمانة الكمال في الوجود ، وفي الطبيعة التى يجلها .. ومن هنا لم ينشأ « كونت » .. الاعتبار العام للعلم .. وإنما استهدف فحسب : النسبية فيه .

... ان تغير الانسان من وضع الى وضع مقابل ... ومن حال الى حال مغايرة في عواطفه ، وفي تفكيره ، وفي عزمه وارادته ، وفي يده ، ومن صحة الى مرض ، ومن جوع الى شبع ، ومن عطش الى رى ، ومن رغبة الى عزوف ، وبالعكس .. يجعل التجربة التي يعيش معها ناقصة .. ويجعل مقياس الاختبار الذي بيده مهزوزا .

ولولا التطور ، كتانون أيضا لحياة الانسان .. ولولا تعدد المساولات العلمية والنجاح فيها مرة والى الاخفاق مرة اخرى .. لوقف التغير بالانسان عن ان يتقدم في علمه ، وفي كل ما له من انتاج .

وهكذا يعيش الانسان بين مبدئين يخضع لهما في حياته : بسدا التطور ، ومبدأ التغير . والتطور في ذاته انتقال ويصعبه تغير في الملامح . ولكن التغير المقصود هنا هو التارجح او التردد بين نقبضين في حياة الانسان ..

**وكما قيل قديما : ان كمال الناقص محدود ، وبلوغ الضائر الى نهاية ضرورته محدود أيضا . ومن ثم يستحيل ان يصل الانسان الى كمال مطلق ، والى عقل خالص .. لا يختلط به دفع غريزة .. ولا اثر من آثار حيوانيته .**

### **.. والعلم لا يكون الضمير :**

وان تقدم العلم لا شك يفيد الانسان في جوانب حياته المختلفة .. انه يسير له مصاعبها ويكشف له المجهول منها .. انه يستطيع ان ينفذ الى اصل المادة ويفجر الذرة ويركب الهواء ، ويقتحم الفضاء ، وقد استطاع ان يفعل كل ذلك .

وهو بصدد وضع الخطوط لاختبار مجال حياة الانسان في الكواكب الأخرى .. كما استطاع فعلا ان يستغل قاع المحيطات ، ويمتدح الصحراء ، وينزح ما في جوف الأرض من ثروات على أعماق ، لم يتصورها الإنسان من قبل .. وفي أخلاط كان يعز تمييزها فيما مضى .. من أجل حياة الانسان .. ورفعا لمستواه .. ومواجهة لنمو عدد السكان ..

ان العلم يستطيع ان يخضع جوانب الحياة المادية كلها للبحث والاستنتاج التجريبي .. ويستطيع كذلك بتقدمه في الصناعة .. ان يجعل من وسائل الاعلام أدوات للتعبئة النفسية ، ودفع الراى الجماهيرى الى اتجاه معين في السياسة .. او الاعتقاد في عظمة زعيم من زعماء السياسة .. او في حشد هذا الراى العام في حرب باردة ، او ساخنة .. ضد ايديولوجية معينة .. ولصلحة ايديولوجية خاصة .

ولكن هذه التعبئة هي ثورة حماس مؤقت ، سيئال الانسان نفسه ، بعد مضي قليل من الزمن عليها ، عن الهدف الخاص الذى سيحصله من المشاركة فى الاندفاع .. وذلك لأنها تعبئة من أجل الحياة المادية التى يعيش فيها الانسان فى حاضره . وهى حياة مكشوفة الجوانب .. أو يمكن أن تكشف فى يسر وفى وقت قصير .

وبالتالى تتكشف حقيقة الأمانى والأمال التى ارتبطت بهذه التعبئة ، ويصبح الكثير منها لا مدلول له فى الواقع .. وهنا يفتر الحماس السابق .. وقد يتحول مجراه الى الضسد تماما من اهداف التعبئة السابقة ..

وشأن الحماس المؤقت لا يكون قوة نفسية فى الانسان ، يطول أجلها معه فى دفعه نحو أهداف معينة . ان العلم فتش عن النفس فى الانسان ، وعاش فى تفتيشه عنها : اما فيها وراء الطبيعة .. أو فى ظواهر السلوك المادية . ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يخضعها لتجربته المادية .. والرياضة النفسية وحدها ، وهى تدريب النفس على السيطرة على مقع هذه الحياة .. هى التى استطاعت أن تلتقى مع الروح ، وتختبر حقيقتها .. ولكن دون أن تستطيع التعبير عما وجدت لها من قوانين ..

والعلم المعاصر لا يرى الرياضة النفسية وسيلة من وسائل تجاربه .. لأنه آمن بالطبيعة المادية وحدها .. وآمن بالوسائل التى تستخدم عادة فى الكشف عن هذه الطبيعة ..

ومن هنا لم يستطع العلم الحديث أن يوجد حتى الآن القوة الذاتية فى نفس الانسان ، وهى ما نسميها بالضمير .. ويستحيل عليه كذلك أن يوجد هذه القوة ، للتناقض بين ما يأتى به هو .. والجو الذى تنشأ هى فيه ..

العلم من طبيعته : الكشف ، والجو الذى ينشئ الضمير من طبيعته : أن يكتنفه الغموض وعدم التحديد . إذ دفع القوة النفسية التى نسميها الضمير .. مرتبط بأمل . فكلما كان الأمل محدودا ومكشوفاً .. كلما عرف على حقيقته . والوقوف على حقيقة الشيء لا يطول معه تعلق النفس بذلك الشيء .. ومن ثم يفتر توجيه النفس نحوه بعد فترة .. أو يتلاشى هذا التوجيه أصلاً ..

والعكس : كلما كان الأمل مما لا تصل النفس الى طبيعته ، وتظل فى دائرة التصور المحبوب له .. كلما زاد تعلق النفس به .. وكلما ، بالتالى : استمر فى التطلع اليه والاندفاع نحو تحقيقه ..

وتطبيقا لذلك : كل أمل ارتبط بشيء مادي ينتهى بانتهاء الحصول عليه اذ الحصول عليه يتضمن نهاية العلم به .. وينتهى الدفع نحوه ، ولا تتكون من أجل ذلك قوة نفسية تستمر في دفعها .. وانما الذى ينشأ عن هذا الأمل .. هو حماس .. وانفعال مؤقت ..

... وكل أمل ارتبط بشيء معنوى ، كأن يرتبط بتحقيق قيم عليا ، أو برضاء الله ، طال أمده بطول حياة الانسان .. وتحويل الحماس النفسى المؤقت من أجل طول الأمد الى قوة نفسية دافعة ، مستمرة في دفعها .. وعرفت هذه القوة عندئذ بالضمير . اذ القيم العليا هنا لا يعرف تحققها في وقت معين . ومن ثم فالعلم بها لم ينكشف تماما .. ورضاء الله لا يعرف كله ، لأنه مرتبط بذاته .. وان كان يتصور . ومن ثم أيضا : فهو غير محدود .. وان كان معشوقا .

والأمور المعنوية . ليست موضوعا للعلم الحديث .. ولا يؤمن هو بها كذلك . ومن ثم : فالعلم لا يحدث ضميرا .. وان الذى يحدثه .. هو دين الله .

... العلم الحديث يخاصم المعنويات والمعتقدات القلبية ، وينكر ذلك الدار الآخرة وما يجرى فيها .. ويعتبر الحديث عن دار آخرة .. هو حديث عن خرافة .. وكذلك الحديث عن قيم ومثل عليا .. هو حديث عن خداع !

ودين الله يوم طرح الدار الآخرة للإيمان بها ، وجعلها مرحلة ثانية وأخيرة لحياة الانسان ، ووصفها بأنها : مرحلة الاستقرار ، والأمن والسلام ، بينما الدنيا : هى دار الكفاح من أجل الاستقرار والأمن والسلام .. يوم دعا الناس الى الايمان بذلك ... ثم يكن كاذبا ، ولا خادعا . وانما كان أكثر عمقا وأبلغ رشدا في الوقوف على طبيعة الانسان .. وعلى طريق السلام في حياته ..

ان العلم الحديث لا يستطيع أن يحقق العدل المادى ، والعلم الحديث هنا هو الإشتراكية العلمية : لأن العدل المادى اذا كان معادلة بين السكان والدخل القومى ، فليس فى استطاعة أى شيء أن يحافظ على هذه المعادلة فى كل وقت وفى كل ظرف . واذا تعلقت النفوس جميعها بالخطوط المادية وحدها فسنكون هناك خيبة أمل لبعض ، وحقده عند بعض آخر ، وقلق مصحوب بعجز عند بعض ثالث ، واضطراب يدفع الى ثورة عند بعض رابع ، وهكذا ....

وَأَمَّا ذَٰلِكَ فَلَا يَكُونُ هُنَاكَ سَلَامٌ ، وَلَا اسْتِقْرَارٌ . فَإِذَا جَاءَ دِينَ اللَّهِ وَوَعَدَ بِالْآخِرَةِ . . . فَلَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ عَنْ طَرِيقِ هَذَا الْإِيمَانِ جَوْهُدَهُ وَهُوَ جَوْهُ الْعَمَلِ . . . وَيُرِيدُ أَنْ يَدْرِبَ الْأَنْفُسَ عَلَى تَقْبُلِ الْحِظُوظِ ، كَمَا يَتَقَبَّلُ لِأَعْوَابِ الْكُرَةِ . . . النَّصْرَ وَالْهَزِيمَةَ بِرُوحٍ لَا تَجْعَلُ الْمُنْتَصِرَ مَغْرُورًا ، فَقَدْ يَنْهَزِمُ مُسْتَقْبِلًا . . . وَلَا الْمُنْهَزِمَ مُتَشَائِمًا وَيَائِسًا ، فَقَدْ يَنْتَصِرُ غَدًا . وَتِلْكَ رُوحٌ لَا تَجْعَلُ النَّاسَ يَدِيرُونَ ظُهُورَهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، وَأِنَّمَا تَجْعَلُهُمْ يَلْتَقُونَ ، وَيَتَصَافَحُونَ ، وَيَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْخَيْرِ وَالسَّلَامِ .

ان دین الله یبغض التشاؤم ، ویدعو الی الأمل والتفاؤل . . . انه بما یبصر به الناس فی قوله :

« **فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . أَنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** » (١) .

. . . يؤكد الأمل ، ویعلق باب التشاؤم .  
. . . انه بما یقوله :

« **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** » (٢) .

. . . یوضح قانون الحیاة الدائمة من تعاقب المتناقضات بعضها اثر بعض ، كصورة لا تختلف . . . وذلك مما یدفع الیأس . . . ویفسح مجالا لتغییر الحظوظ بین الأفراد .

. . . وعلى فرض : انه لیست هناك آخرة ، وقد قالها قوم سابقون : على الاشتراكية الماركسية والاتجاه المادی التاریخی الدیالیکتی ، كما یحكى ذلك القرآن الکریم :

« **أَنْ هِيَ الْإِحْيَاءُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** » (٣) .

. . . ولم یکن لهم اذ ذاك من العلم . . . حظ علماء الیوم ، وانما كانوا ذوی طفولة فی انسانیاتهم . . . وقفوا بها عند حد المحسوس وحده . . . على فرض انه لیست هناك آخرة . . . وما ضرر الایمان بها ؟  
قد یقال : انه ضرر التواكل ، والتواكل . . . مصدر الكسل وعدم العمل !

(١) الشرح : ٦ ، ٥

(٢) آل عمران : ٢٧ بلفظ « **تُولِجُ** » ، « **تُؤَلِّجُ** » ، « **تُخْرِجُ** » .

(٣) المؤمنون : ٢٧ .

ومن قال : ان التواكل ظاهرة دينية ؟ .. انه ظاهرة الانحراف عن الدين .

وقد يقال : انه ضرر السؤال ومذلقته من أجل لقمة العيش ؟ والسؤال يتناقى مع كرامة الانسان ! .

ومن قال : أيضا : أن السؤال أمر ديني .. من لوازم الايمان بالدين ؟

.. ان الايمان بالآخرة مصدر دفع نحو العمل والانتاج ... وفي الوقت نفسه مبعث سلام في حياة الانسان على هذه الأرض .. وعامل أساسى في تكوين الضمير الانسانى .. واستدامة دفعه ..

اذا لم تكن الانسانية في حاجة الى ضمير ، فما أغناها عن دين الله ، ولتكف بفلسفة العلم الخلقية ، وهى فلسفة النسبية في القيم الأخلاقية .. بجانب اكتنائها بالاشتراكية العلمية في تنظيم المجتمع وفي .. تنمية العلاقات المتبادلة بين افراده !

... وأن هى افتقرت الى ضمير فليس هناك من مصدر له .. الا دين الله رب السموات والأرض . **لأن العلم أبى الا أن يكون الانسان مادة .. تتبعها ظواهرها فيه .. كما تتبعها فى آية طبيعة أخرى .. وأبى أن يكون للقيم العليا وجود أصيل .. تتبعه آثاره سواء : فى تكون الضمير .. أو فى السلوك .**

ان العلم اذا استطاع أن يوفر للانسانية الخير المعنوى ، وهو السلام والاستقرار فى علاقات الأفراد والمجتمعات ، كما يستطيع أن يوفر لها الرفاهية المادية بالصناعة والتقدم فى الآلية والتحكم فى الأرض والماء والجو .. فهو الاله يجب أن تتجه اليه الانسانية جميعها بعبادتها اياه فى محرابه ! .. بعد أن اتجه اليه من قبل أصحاب الفكر الوضعى ، وفلاسفة الانجساح المادى ، من : فرباخ ... الى ماركس .

... ولكن اذا كان يستحيل عليه أن يصنع ذلك .. فليس أمامه الا مصادقة دين الله فى توجيه البشرية . ويستحيل عليه أن يصنع ذلك . لأنه ليس أصلا يتبعه الانسان .. وانما الانسان صائعه وموجهه . ويعود الأمر من جديد الى : **الانسان** . فان لم يكن مؤمنا بالانسانية عن طريق أيمانه بالله .. فليس هناك ضمان لتوجيه العلم دائما نحو الخير العام .

« كلا ان الانسان ليطغى . ان رآه أستغنى » (١)

... تلك طبيعة الانسان . فان لم يكن له ايمان بجانب العلم ، لا يؤمن ان يكون العلم مصدر طغيان الانسان . ولن يستقر سلام في مكان ما .. طالما هناك طغيان .

« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٢)

وهذه سنة الحياة الإنسانية التي لا تتغير ولا تتبدل ... ان ترك الانسان بعقله وغرائزه فقط ... لا يؤمن الا بذاته وطاقاته فحسب ... ان ترك ورغبته في الاستقلال وغروره بخالقيته ... فحتما مصير امره .. الخسران في حياته .

فليس هناك خسران بعد الفلق والخوف ... وبعد الحقد والنزاع ... وتلك هي نتائج الأناية ، التي تدفع اليها الغرائز بطبيعتها ، في مواجهة العقل المستضعف آنئذ .

فان اُضاف الانسان الى طاقاته الخاصة من غرائز وعقل .. توجيه دين الله : فآمن ، وعمل صالحا ، وتعاون على نصره الحق دائما ، واستعان بالصبر في مناصرته للحق ، وفي استقامته في السلوك ، وفي ايمانه بالله ... لم يلحق به خسران ولا اذى .. وعاش في هدوء وسلام ، وتجنب حياة الخيوان .. في نزاعها المستمر ، واضطرابها الذي لا ينتهى .

الانسان زود من طبيعته بسمع وبصر ، وعن طريقهما يفتح المجال لعمل العقل في تفكيره .. وفي تحصيل معرفته .

... وبجانب السمع والبصر .. كان له القلب أو الفؤاد ، وهو مكان الايمان . فان تركه خاليا .. فليس هو مباشر لجميع طاقاته .

وهنا يكون القصور في تنمية جوانب انسانيته . ويستحيل عليه ومنتهد ان يصل الى هدف انسانيته .. في نفسه .. وفي مجتمعه .

وأولى به لهذا .. ألا يقف بتطوير نفسه عند بعض من جوانبه .. مهملًا البعض الآخر منه . ان ذلك ليس الحكمة في التفكير .. وليس اليقين في المعرفة .. وليس الكمال في الوجود الخاص به .

... انه الانسان .. في تطوره .

... وسيظل متطورا .. ولكنه لن يصل الى نهاية هذا التطور ... وحده ، وبغير هداية الله .

\*\*\*

(٢) سورة العصر .

(١) العلق : ٦ ، ٧